سلسلة دراسات إسلامية معاصرة
21
الأدب
أنور الجندي
منشورات المكتبة العصرية
صيدا – بيروت
الطبعة الأولى
1402 هـ - 1982 م

###3### الأدب

إن خصائص الأدب العربي التي تميزه عن الآداب العالمية المختلفة في الشرق والغرب ترجع إلى البيئة التي نشأ فيها، والمفكر الذي تشكل في إطاره، والتحديات التي واجهته في طريق مساره الطويل، وقد نشأ الأدب العربي في الجزيرة العربية إلى قرون عديدة سبقت الإسلام، وصاغته مقومات دعوة التوحيد الأولى "الحنيفية" حين قام هذا المجتمع الجديد في قلب الجزيرة بجوار بيت الله الحرام، فجمع بين جنوب الجزيرة وشمالها ووسطها، وصهرها جميعًا في ذلك البناء الذي أقامه الإسلام ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم حفيد إبراهيم وإسماعيل، ولا ريب أن الإسلام هو الذي أعطى العرب كيانهم الاجتماعي، والقرآن هو الذي صاغ لهم منهج الأدب العربي، ولقد كان قبل الإسلام شعر وأدب وأسواق، ###4### وكان الشعر ديوان العرب ومجموعات من سجع الكهان، غير أن صورة الأدب في معالمه الأصيلة، إنما وضحت بعد نزول القرآن الذي كان العامل الأعظم في بناء الأدب، وظهور فنونه وعلومه ومناهجه، والذي أغنى اللغة العربية بالأساليب والمضامين، ولا ريب أن اللغة العربية سابقة على الإسلام، وهي عماد وجود الأمة العربية، وهي لغة تطورت، ونمت خلال مئات السنين حتى وصلت إلى صورتها التي عرفت بها قبيل الإسلام، وإن ظلت لها لهجاتها المتعددة، فلما نزل القرآن انصهرت اللغة العربية في لهجة واحدة، ثم كان أن أعطاها القرآن – كما أعطى الأدب العربي – هذا البيان المعجز الفائق – الذي فهمه العرب، وأعجبوا به، وعجزوا في نفس الوقت عن الإتيان بمثله. ولقد كان لميراث النبوة في إسماعيل: جد العرب، وبقايا الحنيفية "دين إبراهيم" قيم خالطت النفس العربية، قامت على الأريحية والمروءة، وإن أصابها كثير من فساد عادات الثأر، ووأد البنات، والشرك وعبادة الأصنام، والاستعلاء والتفاخر، فلما جاء الإسلام حرر هذه النفس العربية من جاهليتها، وصاغ كثيرًا من طوابعها صياغة جديدة، وحول أهداف الكرم وحماية الذمار والنجدة، فأعطاها مفهومًا متجددًا هو مفهوم التوحيد ###5### الأصيل، واستبقى قدرتها على المجالدة والحمية، ووجه ذلك كله إلى هدف أسمى تحت لواء عقيدة التوحيد الخالص، وبذلك محا درن الجاهلية، وحرر قيمها التي كانت عماد القوة الكبرى التي اندفعت في الأرض ترفع راية الإسلام، وتعلن اسمه، وتمد نفوذه من حدود الصين إلى حدود فرنسا، كل هذه العوامل أعطت أدب اللغة العربية ذاتية خاصة، وطبعته على نحو خاص يختلف به عن أدب الأمم الأخرى، وظهرت فنون لم توجد في الآداب الأخرى، واختفت منه فنون توجد في الآداب الأخرى، وظهور تلك الفنون واختفاء تلك الأخرى منه لا ينقص من قدره، ما دام يصدر عن أعماق روحه الطبيعية ومقوماته الخالصة، ومن هنا فإن هذا الأدب لا يمكن أن يدرس في ضوء مناهج وضعت لآداب أخرى، ذلك أن أساليب النقد والبحث إنما توضع للآداب بعد ظهورها، ولذلك فهي مستمدة منها وليس العكس.

إن مذاهب الأدب التي يحاول النقاد محاكمة الأدب العربي إليها، هي في جملتها مذاهب غربية، وضعت مسمياتها ومناهجها بعد قيام ظواهرها في الآداب الأوروبية، وهي في الحق ليست مذاهب، وإنما هي أسماء عصور: كالكلاسيكية والرومانسية وغيرهما، وهي تتصل في مجموعها ###6### بتاريخ الأمم التي وضعت هذه المذاهب، فلماذا تنقل لتكون قوانين يخضع لها

أدبنا الذي يختلف من حيث تكوينه وطابعه وتاريخه، وبيئته ومظاهر حياته عن هذه الآداب؟ إن اختلاف المصادر والمنابع بين الأدب العربي والآداب الغربية يجعل من العسير خضوع الأدبين لمقاييس واحدة، أو لقوانين واحدة، والمعروف أن الآداب الغربية جميعًا تستمد مصادرها من الأدب الهليني والفلسفة اليونانية، والحضارة الرومانية، فقد اتجه الأدب الأوروبي الحديث منذ أول ظهوره في عصر النهضة إلى هذه المنابع، وربط نفسه بها، وجعلها أساسًا ثابتًا لمختلف وجهات نظره ومفاهيمه وقيمه، كما اتخذ من النظريات التي قدمها أرسطو في الأدب والنقد والشعر وغيره أساسًا له.

ولا ريب أن الأسس التي يقوم عليها الأدب الغربي بمختلف فنونه وبيئاته، تختلف اختلافًا واضحًا عن الأسس التي يقوم عليها الأدب العربي الذي استمد مصدره أساسًا من القرآن الكريم، والإسلام والقيم العربية الأصيلة التي تلاقت مع مفاهيم الإسلام، وانصهرت معها.

2- أما الفكر الذي تشكل الأدب العربي في إطاره، فهو القرآن، وأداته اللغة العربية، ويقوم هذا الفكر على ###7### أساس التوحيد الخالص. فقاعدة الإسلام الأزلية هي الاعتقاد بوجود الله الواحد الذي لا يتغير بتغير الزمان والمكان، فالله – سبحانه وتعالى – هو خالق الكون، وهو الذي يمسك هذا النظام المترابط في كل لحظة بحيث لو تخلى عنه لتلاشى وانتهى، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، وهذا المفهوم هو الأساس في الأدب العربي، والإنسان في نظر الإسلام مستخلف في الأرض، وله طبيعته الجامعة بين الروح والجسد، والعقل والقلب، وله رغباته المادية وأشواقه الروحية، وله إرادته ومسؤوليته، ولما كان القرآن هو المصدر الأصيل للفكر الإسلامي، فهو المثل الأعلى للأدب العربي. ولا ريب أن تأثير القرآن في هذا الأدب لا ينقطع لأنه متصل بالأداء والمضمون معًا حيث يستمد الأدب العربي أصوله من الإسلام والقرآن الكريم، وفي مقدمتها: الأصالة والصدق، والوضوح والإيمان، والتفاؤل والأخلاقية، والتكامل، والالتزام والمسئولية، والحرية ذا الضوابط وثبات القيم وترابط الفردية والاجتماعية والتوحيد والتجريب والفطرة، وقوامة الرجل، وتكامل المعرفة وترابط العروبة بالإسلام والطابع الإنساني.

3- من خلال دراسة الأصول التي استمد الأدب ###8### العربي منها وجوده تظهر جليًا وجه الخلاف والتباين بين الأدب العربي والآداب الغربية وخاصة في أربع مواقع هامة:

أولا: تفسيرات العقائد.

ثانيًا: طبيعة البلاد.

ثالثًا: موروثات الهلينية والفكر اليوناني.

رابعًا: الآثار الخطيرة التي حققتها سيطرة الفكرة التلمودية على الفكر الغربي كله في العصر الحديث.

ومن هنا نجد الخلاف عميقًا في العقائد والثقافة ومناهج البحث والطبيعة النفسية، والطبيعة الجغرافية جميعًا، ولهذا الخلاف أبعد الأثر في مفهوم الأدبين، ذلك أن أبرز طوابع الفكر الغربي "الأدب الغربي بالتبعية" هو تجزئة الأمور لا تكاملها "فهي تفهم شيئًا واحدًا، وترى الآخر عكسه أو ضده، وهي تفصل بين الأشياء فصل العداوة أو المخالفة أو التعارض، ولا تستطيع أن تقبل المواءمة أو المصالحة؛ أو الالتقاء أو التكامل على النحو الذي يمثل طبيعة واضحة للفكر العربي الإسلامي، وحين يستمد الأدب العربي مقوماته

من التوحيد، يستمد الأدب الأوروبي مقوماته من أشياء أخرى يكاد الدين الغربي أن يكون عنصرًا فيها، ###9### ولكن أبرز المقومات هي الوثنية الهلينية والأدب الجنسي الصريح.
4- واجه الأدب العربي عددًا من النظريات الوافدة في مجال النقد الأدبي، قدمها بعض الأدباء في نطاق الدعوة إلى تجديد الأدب العربي، وقد خالفت هذه النظريات منطلق الأدب العربي وجذوره، وعارضت ذاتيته الإسلامية العربية الخالصة، واصطدمت مع مزاجه النفسي والعقلي، ومن هنا فقد سقطت واحدة بعد أخرى، ولم تجد مجالا للعمل والنماء والتشكل مع الأدب العربي ذلك أن هذه النظريات في أصولها قد انطلقت من طوابع الآداب الأوروبية وذاتيتها، وتشكلت وفق مضامين تلك الآداب، واعتمدت أساسًا على النظريات التي بدأت في دائرة العلم الطبيعي، ثم فرضت نفسها على الفلسفات والآداب، وهي النظريات التي اعتبرت الإنسان حيوانًا خاضعًا لظروف البيئة خضوع مختلف الأشياء لها، وهي نظرية مادية خالصة لا تتفق مع روح الأدب العربي الذي يقوم على أساس ترابط واضح بين المادية والروحية، وبين العقل والقلب، والتي تعتمد قاعدة التوحيد الإسلامية أساسًا لمنطقها.
###10### ويقوم منهج النقد الأدبي العربي الحديث الذي فرضه بعض الأدباء بعد الحرب العالمية الأولى على الأدب العربي على أساس مادي خالص، فهو مبني على أساس النظريات التي استمدت مناهجها من نظرية دارون عن التطور وأصل الإنسان: هذه النظرية التي قامت في دائرة العلم الطبيعي، ثم نقلها الفيلسوف هربرت سبنسر إلى مجال المجتمع، فطبقها على مبادئ الأخلاق، ثم جاء "برونتير" الناقد الفرنسي، فطبقها على الأجناس الأدبية، هذا فضلا عن أن المفاهيم التي اعتمد عليها دعاة المذهب الغربي في النقد الأدبي، إنما استمدوها من برونتير هذا، ومن تين وسانت بيف، وهم يرون أن الإنسان ما هو إلا أثر من آثار البيئة بمعناها الاجتماعي الواسع، وأنه لا يكاد يفترق عن النبات والحيوان في انتفاء الحول وانعدام الإرادة، وما يتصل بهذا من أن الفضيلة والرذيلة ليستا إلى حد كبير إلا نتاجًا لعملية تلقائية مثل الأحماض والقلويات، فضلا عما ترتبط هذه النظرة جميعها به من أثر نظرية النشوء والارتقاء من حيث إنزال الإنسان من مكان البطولة إلى مكان الحيوان الذي يعيش تحت رحمة القوى المحيطة به، وقد نمى هذه النظريات الباحث الفرنسي دروكايم في مفاهيمه التي تلقاها بعض أدبائنا هؤلاء ###11### في جامعة السوربون، وجعلوا من هذا الخليط كله أساسًا لنظريتهم في النقد الأدبي التي جرى تطبيقها على المتنبي وابن خلدون والمعري، ثم جرى تطبيقها على الشعر الجاهلي، وعلى أدب القرن الثاني للهجرة، وكان لها ذلك الأثر العميق من التضارب الذي أصاب القيم الإنسانية للأدب العربي والفكر الإسلامي والثقافة، والتي ذهب الباحثون في تعقب آثارها فلم يصلوا إلى هذا المعنى إلا منذ وقت قريب حين تبين محاولة إخضاع الأدب للمنهجين الاجتماعي الذي رسمه دوركايم والذي يعترف بأن الإنسان حيوان اجتماعي وأن مختلف قيم المجتمع ليست أصيلة فيه، والمنهج النفسي الذي التقطه الأدباء من نظرية فرويد، والذي يرى أن الإنسان عبد لشهواته، وأن الجنس هو المحرك الأول لكل تصرفاته.
وقد غلب المذهب الاجتماعي على دراسات الأدب والتاريخ، وغلب المذهب النفسي على دراسات التراجم والشعر ومن هنا ظهرت تلك الآراء الغريبة

التي تمسك بها بعض الأدباء، والتي لا تتفق من قريب أو بعيد مع مفاهيم الفكر الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية، ومن ذلك ما قاله الدكتور طه حسين من أن "الدين نبت من الأرض ولم ينزل من السماء" وقوله: "إن العالم الحقيقي هو الذي ينظر إلى ###12### الدين كما ينظر إلى اللغة، وكما ينظر إلى اللباس من حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة، ومن هنا نصل إلى أن الدين في نظر العلم لم ينزل من السماء، ولم يهبط به الوحي، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها" اهـ.

والواقع أن قائل هذا كان يردد صيحة معروفة في الغرب على أيدي العلماء اليهود تلاميذ وأحفاد بروتوكولات صهيون، وأن العلم الذي يشير إليه ليس هو العلم بمعناه الحقيقي، وإنما هي الفلسفة المادية، ومدرسة العلوم الإجتماعية، والتحليل النفسي، وكلها تقوم على مصدر مادي خالص، ولا تعترف بأن الإنسان روح ومادة، ولا ريب أن هذه الآراء واحدة، وأن الدكتور طه لم يبتكرها، ولم يصل إليها بعد بحث، ولكنه تعلمها من دوركايم وغيره من الكتَّاب الغربيين الذين أرادوا أن يتحركوا بمفاهيمهم هذه من خلال الفكر الغربي من الفلسفة المثالية التي كانت سائدة إلى الفلسفة المادية الخالصة.

أما الأدب العربي والفكر الإسلامي، فليس له مع هذه القضية أو هذه الأزمة صلة ما، ولذلك فإن من الظلم البين أن ينقل مجال المعركة إلى الأدب العربي بغير حاجة إليها إلا ###13### حاجة واحدة في نفس يعقوب، هي محاولة تغريب الأدب العربي وعزله عن ذاتيته الخاصة ومقوماته وأرضيته.

وفي نفس مجال الادعاء بأن هناك صراع، بين الدين والعلم، فإن الأمر يبدو مضللا، فليس بين العلم والدين خصومة حقيقة فضلا عن أنه ليس بين الإسلام والعلم خصومة ما، والنظريات العلمية لم تثبت تناقضًا بين العلم والدين.

5- وقد عارض كثير من الباحثين هذا المنهج الوافد في نقد الأدب العربي، وقال الدكتور حلمي علي مرزوق في كتابه "تطور النقد": إن المنهج العلمي في البحث الذي ينقد به طه حسين الأدب العربي لا يصلح استخدامه إلا في مجال الوقائع العلمية التي يدرسها العلماء كأصول الدراسة الكيميائية والطبيعية، وما إليها حيث لا يدخل في مجال الوقائع العلمية معارف الشعوب، ولا يستطيع العلم أن يستقل بالبحث في هذا الموضوع لأنه أدخل في مجال الرأي، ويهول طه حسين في المنهج الاجتماعي الذي ينظر إلى الإنسان على أنه حيوان اجتماعي، ومن هنا يعول على دراسة البيئة والعصر، ولا يدرس البواعث النفسية للأديب التي تحفزه إلى نوع من السلوك دون آخر، وقد فرق الأستاذ محمد أحمد الغمراوي ###14### بين مناهج الأدب ومناهج العلم في مناقشته لهذه النظرية فقال: أما العلم فإنه ميدان العقل ومتاعه، وهو لا وطن ولا قومية له، كما أن العقل لا قومية له ولا وطن، فقوانين التفكير واحدة وسبل العقل واحدة في العالمين، ثم أنت لا تشعر أثناء تلقي العلم من أجنبي أنك تتلقى شيئًا خاصًا بجنس من البشر دون جنس، أو بقوم دون قوم، ولكن تتلقى شيئًا من البشر مشتركًا، أو ينبغي أن يكون مشتركًا بين الناس أجمعين اشتراك العقل بينهم، وليس الأدب كذلك، فبينما أنت في العلم لا تجد علمًا ألمانيًا ولا علمًا فرنسيًا، ولكن علمًا واحدًا إذ تجد الأدب متعددًا بتعدد الأمم، لكل أمة أدبها كما لكل أمة لغتها، وتجد أدب كل أمة

مطبوعًا بطابعها طبعًا لا خفاء فيه، أو هكذا هو إذا استقلت الأمة بأدبها، ونسجت لنفسها بردًا من روحها وتاريخها وتقاليدها وعادتها ودينها، بدلا من أن تلتف بشق من برد غيرها، لا تجد فيه دفئًا ولا قوة ولا جمالا، وقد وجد هذا المذهب في النقد الأدبي معارضة تستمد قوتها من معارضته للذوق العربي ومضادته لذاتية الأدب العربي التي تعتبر الإنسان سيد الكائنات، وتعلي من قدر عقله ووجدانه، وتحاكمه إلى مقاييس تختلف اختلافًا كبيرًا عن المقاييس المادية التي تراه حيوانًا أو خاضعًا للجنس.

###15### وقد سقطت نظرية خضوع الأدب للمذهب الاجتماعي والمذهب النفسي على السواء، وتبين فساد الرأي الذي أعلنه طه حسين في العشرينات من هذا القرن حين قال: إنه يريد أن يدرس الأدب كما يدرس صاحب العلم الطبيعي علم الحيوان وعلم النبات.

6- كذلك هناك خلاف عميق حول أخلاقية الأدب، فقد كان من أبرز ما دعا إليه المذهب الغربي في الأدب، هو تحرير الأدب من طابع الأخلاق، ودفعه إلى تصوير الغرائز والأهواء في غير ما قيد، وذلك باسم "حرية الأدب" التي أطلق عليها مصطلح "الفن للفن" ولقد بدأ هذا الاتجاه بظواهر ثلاث:

1- الإفاضة في الحديث عن حياة بشار وأبي نواس وغيرهم من شعراء الإباحة في العصر العباسي، ونشر الجوانب الشاذة من أحاديثهم وأسمارهم على النحو الذي كتبه طه حسين في "حديث الأربعاء".

2- ترجمة القصة الفرنسية الإباحية والكشف عن جوانب الصراع الحسي في العلاقات الشاذة بين الرجل والمرأة وترجمة أشعار بودلير وغيره من شعراء الأدب المكشوف.

###16### 3- الإذاعة بمذهب حرية الأدب والدعوة إليه والدفاع عنه وفق منهج له طابع علمي زائف بدعوى أنه منطلق إنساني أصيل.

وقد استهدفت هذه الدعوة التي اتسع نطاقها، وقامت من أجلها المناظرات والمحاضرات، فضلا عن ذلك الفيض الضخم من القصص الفرنسية المكشوفة التي جرت ترجمتها وتقديمها بأسعار زهيدة وإلقاؤها بين أيدي الشباب والفتيات، والغمز لكل ما يتصل بالعقائد الدينية، والسخرية بالفضائل والبطولات والدعوة إلى الانطلاق بدون حرج، والجرأة على المقدسات، بل إن ذلك قد جرى تطبيقه في بيئات مختلفة، منها بيئة العلم الأساسية، ولقد لقيت نظرية حرية الأدب ومعارضة الأخلاق نقدًا واعتراضًا، مصدره تعارضها مع طابع الأدب العربي أصلا، وكشف الباحثون المنصفون عن أن حرية أبي نواس وبشار لم يكن مصدرها الأدب العربي أو مفاهيم الإسلام الاجتماعية، وإنما مصدرها تطلعاتهم الحسية وأهدافهم الشعوبية التي أرادوا إذاعتها والجهر بها لهدم مقومات الأدب العربي الأصيلة، وإعلاء مفاهيم المجوسية والإباحية التي تحرر منها الأدب ###17### العربي بعد الإسلام، ذلك أنه ليس في مفهوم الأدب العربي أصلا ما قاله طه حسين حين قال: "خسرت الأخلاق وربح الأدب" وقد واجه الدكتور حلمي رزق هذه النظرية حين قال: إن حرية الأدب لا جدال في إطلاقها، ولكن الخطأ في قصرها على عاطفة دون عاطفة، أو وجدان دون وجدان فضلا عن عاطفة الهوى ووجدان الشك والمجون، وأخطأ الخطأ أن يوحي إلينا طه حسين أن الأخلاق في مواضعات الحياة الجامدة كأنها وليدة الإرادة العمياء التي نادى بها شوبنهور فهي فرص مكررة أو إلزام أعمى تقتضي الحرب والإنكار؛ والقاعدة الأخلاقية ليست من قبيل المواضعات

العمياء، ولا الضوابط الجامدة، وإنما شأوها شأو الفن، وليدة التجربة العميقة التي يقع بها صاحبها على الصلات الحقيقية بين الأشياء.
وشواهد الصلة بين الفن والأخلاق شائعة معلومة في تواريخ الأدب والفنون، ونراها ماثلة فيما يجري بيننا من شعر المتنبي وأمثال شكسبير على أن طه حسين حينما يصرف الأدباء عن الأخلاق إنما يقع في العيب الذي يأخذهم به، فهو يشتط في نفي الحجر على الشاعر، ويقع هو فيه وأي حجر أشد من الوقوف بالأخلاق والفضائل موقفًا بعيدًا عن الفن، فلا ###18### ينبغي للأديب أن يقربها، وإلا كان أدبه "قديمًا من قوارير" تصطلح عليه علل الكذب وإدواء الصنع، وتنتفي عنه سمات العصرية أو الأدب الحديث، أو الوجدان الديني، يعد شأنه في الأدب شأن غيره من الأحاسيس ومشاعر النفس، لا ينبذه ناقد ولا يكون له في قضية الحب نصيب على أنه سيظل ماثلا في الأذهان أن الحرية قد تقضي لا محالة إلى ما دعا إليه طه حسين من الخروج عن الأعراف والمواصفات، وتنتهي إلى التعبير الحر عن الأهواء والنزوات، وخلاصة القول: إن دعوى الاختلاف بين الفن والدين والأخلاق، نشأت من اتباع نظرية الفن للفن، ومرد الاختلاف إلى اعتبار الفن نوعًا من التعبير لا أزيد ولا أقل، فلا عبرة بالموضوع في ذاته، وإنما العبرة بمقتضيات التعبير، فالفنان لا حجر عليه في تصوير ما يشاء من المشاعر والأحاسيس، اتفقت ومواضعات الجماعة وأعراف الناس أم خرجت عليها، فالفن لا يخضع لغير قانون التعبير.
ومن هنا أيضًا نشأ التضارب، وسار عليه طه حسين فيما أسلفنا من القول: "خسرت الأخلاق وربح الأدب" وهو موقف يوحي به ظاهر المذهب، وعنه شاع هذا الخطأ حتى أصبح تبريرًا لكل تبذل مقصود، وحجة يسوقها أنصاف ### ###19 الفنانين بين أيدي الانحلال، يريدون أن يضفوا عليها ثوبًا من المشروعية الزائفة، ينفقونه في سوق الغباء الغني، فغاية المذهب الحقة تخليص الأدب من القيم الدخيلة عليه، ولم يكن قصاراه أن يقف من الأخلاق والدين موقف التناقض والحق أن نسبة مثل هذه النظرية إلى المفاهيم العلمية، إنما هو من قبيل تحصيل الحاصل، ذلك لأن الدعاة إلى هذه النظرية، وهم قد طبقوها فعلا في كتاباتهم، إنما كانوا يستهدفون غايات بعيدة أعمق أثرًا، ولذلك لم يكن انتسابهم إلى قواعد العلم والفن إلا محاولة لتبرير جوهم الاجتماعي الخاص الذي كانوا يعيشونه فعلا متحررين من قيود الخلق والدين، ذاهبين إلى أبعد حدود الانطلاق، ولم يكن من المعقول أن يمارسوا هذه الحرية، ثم يقفوا من الأدب موقفًا يخالف ما يعتقدون ويمارسون، ذلك أنهم كانوا قد قرؤوا عن بلزاك وجان جاك روسو وإسكندر ديماس، وما كانت تحويه حياتهم الخاصة من فساد ونزق، وكانوا يتطلعون إلى أن يكونوا كذلك هم، وشاعت بين الأدباء في هذه الفترة دعوة تقول ببوهيمية الأدباء، وأن من حق الأدباء مقارفة كل فنون الحياة ليتمكنوا بالتجربة من الحكم على ما يجدونه في الكتب ###20### والقصص، ومن هنا كانت تلك الدعوة إلى "لا أخلاقية الأدب" مظهرًا حقيقيًا وواضحًا وصريحًا في أدب الأدباء وحياتهم في هذه الفترة.
والعلاقة بين الفن والدين علاقة واضحة، وفي الإسلام أوضح، فالفطرة كلها منشئها واحد هو الله سبحانه وتعالى، والعلم والدين كلاهما قد أجمعا على استحالة التناقض في الفطرة، فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة، ووجب

ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة "دين الإسلام" في شيء، فإذا خالفت الفنون الدين في أصوله، ودعت صراحة، أو ضمنًا إلى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لدفعها عن الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقي في النفس والروح، إذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا أو في شيء غير هذا، فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة، فنون جانبت الحق ودابرت الخير، وأخطأت الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فإذا كان من شأن بعض من يعمل أو يكتب باسم الفن أو الأدب أن يتجاوز في تأثيره ما سبق، فيحول بين الإنسان وبين ربه، ويدخل عليه الشك في دينه بأي صورة من الصور، ولأي حد من الحدود، كان ذلك البعض المعمول أو المكتوب باسم الفن أو ###21### باسم الأدب يعد زورًا أو إفكًا في الأدب والفن والدين على السواء، ولذلك كما يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي: يجب أن ينزل الأدب والفن على حكم الدين وروحه، وعليهما يجري التطابق العام معه، وبذلك يتحقق لهما الاتحاد مع الفطرة في الصميم، والأدب المكشوف يصدم أول ما يصدم مقر الفضيلة في النفس، ويؤذي أول ما يؤذي حاسة الجمال النفسي في الإنسان، وهو في صميمه أدب غير جميل.

7- كذلك كان من أخطر ما قدمته مناهج النقد الأدبي الوافدة "أسلوب الشك" وهو أسلوب ماكر من أساليب الغزو الثقافي أريد به إدارة الأبحاث الأدبية والعلمية والتاريخية كلها في دائرة اللاأدرية والتشكيك والتهكم والسخرية بحيث يرى القارئ أنه إزاء جو مغرق من الاستهانة والاحتقار لكل ما يتناوله؛ ويقول الدكتور طه في بحث له العبارة الآتية: "أخضعت للشك – دون أن أمس الدين – بعض المعتقدات التي ورد ذكرها في القرآن وأحاديث الرسول" أي أسلوب من المكر والتضليل أبعد من هذا في حين يعترف بأنه أخضع بعض المعتقدات التي ورد ذكرها في القرآن للشك، وكيف أنه حين فعل ذلك لم يمس الدين الذي هو مصدر الاعتقاد، والذي هو منطلق كل ما ورد في القرآن، وقد سجل الكثير من الباحثين ###22### هذه الخاصية التي عمد إلى إذاعتها طه حسين في الأدب العربي كله حيث يقول عمر فروخ: إن أبرز معالم أدبه تردده بين المفهوم وغير المفهوم والمنحول والثابت، والممكن وغير الممكن، ولم تره في كتاب إلا داعية للشك، بل كان ينفي ما يثبت نفسه بنفسه، وهو يكتب: "لعل، ربما" ويقول رأيه على التأويل والدوران والتغير، فهو لا يقطع في شيء أبدًا، ولا يصف شيئًا بأنه أبيض أو أسود، ولقد خلط طه حسين بين الشك وبين المخرج من الشك، فجعل الشك القاعدة الأساسية.

وكان من أخطر ما قدمه المنهج الوافد، هو فصل الأدب عن دائرة الأمة، وفصله عن دائرة الفكر، ذلك أن من أخطر النظريات التي حاولت حركة التغريب فرضها على الأدب العربي للقضاء على جوهره الأصيل وعزله عن طبيعته ومقوماته، هي نظرية استقلالية الأدب وانفصاله عن العناصر الأخرى المرتبطة به من أخلاق ومجتمع وتربية وسياسة وفق مفهوم الفكر الإسلامي الأساسي القائم على أن الفكر مركب، وكل من هذه عناصر، والأدب عنصر منها، وإذا كان الأدب الغربي قد انفصل، فإن الفكر الغربي يقوم على ### 23### قاعدة الفصل بين العناصر، وإعطاء كل منها حق الحرية بينما لا يقر الفكر الإسلامي ذلك، ويرى فيه خطرًا على مجموعة القيم، وعلى الأمة، وعلى الأخلاق ومن نتاج هذا الفصل قيام النزعة الانشطارية في الفكر

الغربي، واضطراب المجتمع حيث يعطي للأدب من الحرية ما يسمح له بأن يتجاوز ضوابط المجتمع أو حدود الأخلاق، لذلك قامت هذه الدعوة للفصل بين الأدب العربي ومقومات الفكر الإسلامي على أساس الادعاء بأن الإسلام ليس إلا دينًا روحيًا، وليس نظامًا اجتماعيًا كما في الواقع. وهو بهذا المعنى يتسم بالشمول والتكامل والترابط بين القيم المختلفة، ومن شأن هذا استحالة الفصل بين الأدب والدين، وبين الأخلاق والدين أو بين الأدب والتربية، ولا شك أن هذه الدعوة إنما كانت قد صيغت على نحو ماكر وخطير وبعيد المدى يهدف إلى إخراج الأدب العربي على ذاتيته ومقوماته وطبيعته وإغراقه في مفهوم غريب عنه يتيح لهؤلاء الدعاة حرية النقد، وإثارة الشبهات حول القرآن الكريم باعتباره نصًا أدبيًا، أو نصًا بيانيًا، وكذلك إطلاق حرية الأدب المكشوف وفنون الإباحة والإلحاد انطلاقها من الدعوة الباطلة التي تقول بأن الأدب ليس له أي ارتباط بالدين أو الأخلاق أو الأمة ولا شك أن كتاب "في ###24### الشعر الجاهلي" قد رسم أصول هذا المنهج الخطير المسموم، وما زال مفهوم هذا المنهج هو الأساس الذي يقوم عليه نقد الأدب العربي المعاصر والحديث، وإن أغلب الأدباء والكتَّاب قد اعتمدوا هذا المذهب في كتابة دراساتهم، فأطلقوا لأنفسهم حرية الكشف عن جوانب من التصوير للعاطفة الجنسية، وللنظريات الحرة دون تقيد بأي مقوم من مقومات الأدب العربي الأصيل المستمدة من القرآن التي تتحرك داخل إطار التوحيد، ومع ضوابط الأخلاق والمسؤولية الاجتماعية، وحماية المجتمعات من أخطار الإلحاد والإباحة. كذلك كان من أخطر ما دعا إليه المنهج الوافد نتيجة لدعوى فصل الأدب عن الفكر، إعطاء الأدب حرية الحكم على أشياء كثيرة خارج نطاقه، فقد أخذ الأدباء في إصدار آراء حرة وجزئية مستمدة من نظريتهم الأدبية الواحدة في الحكم على التاريخ والعقائد، أو الأخلاق والدين، وقد تناولوها بدون قيد عليهم على أنها أدب، وحاكموها بمنهج الماديين، وأثاروا حولها شكوكًا خطيرة، وكان هذا تجاوزًا لوظيفة الأدب وخروجًا عن دائرة اختصاصه.

9- كذلك كان من أخطر ما أساء لمنهج النقد الأدبي الاعتماد على المصادر الزائفة، وأهمها كتب المحاضرات ###25### وروايات القصاص وكتابا: ألف ليلة وليلة، والأغاني، فقد اتخذت هذه الكتب التي كتبت أساسًا للتسلية وتزجية الفراغ، اتخذت مراجع يعتمد عليها خصوم المسلمين والعرب من أجل ترويج آراء كاذبة مضللة، ذلك لأن هذه المؤلفات لم يكتبها علماء موثوق بهم، ولم تكتب وفق أصول العلم والبحث، وإنما كتب للتسلية والترويح؛ وقصد بها جمع الفكاهات، والنكات، والأحاجي لإغراق المجتمعات بالأوهام والأباطيل، وقد ارتفع صوت العلماء المحققين في هذا العصر بالتحذير من هذه المصادر الزائفة التي تجمع أخبار الندماء والجلساء والمغنين والمضحكين؛ وقد ظلت هذه المؤلفات مجهولة ضائعة حتى جاء المستشرقون والمبشرون في العصور الأخيرة، فأعادوا طبعها، وأذاعوها في العالم، وأخرجوا أغلبها في طبعات فاخرة، وأوعزوا إلى تابعيهم من دعاة التغريب الإشارة إليها والإشادة بها، والنقل عنها واعتمادها مصدرًا من مصادر التأليف.

كذلك كان من أخطر ما أذيع في هذا الصدد ما أطلق عليه "رباعيات الخيام" وهي مجموعة من الشعر الفارسي المجهول النسب الإباحي الطابع الذي نسب كذبًا إلى الخيام ###26### لإثارة روح الإباحية والاستهتار بالحياة واحتقار القيم في المجتمع الإسلامي.

10- حاول دعاة التغريب الترويج لأدب الجنس والتحلل، وذلك بالدعوة إلى أدب لورنس وأوسكار وايلد، وترجمة مجموعة من الأدب الغربي المكشوف، وذلك في محاولة إطلاق الغرائز من عقالها والكشف عن الحيرة والضياع، وكذلك في إحياء بشار وأبي نواس، مما عرف في عهود استعلاء الشعوبية والدعوات الباطنية الهدامة، وقد كان ذلك كله مخالفًا لروح المجتمع الإسلامي وطابعه الذي يقوم على العفاف والخلق، والقول الكريم دون الهجر وعلى الإشارة العابرة إلى الأمور المبتذلة دون الكشف والإفاضة في ضوء المحرمات الجنسية والميول المنحرفة، ولا شك أن الاتجاه إلى الكشف في الأدب هو طابع غربي له جذور إغريقية قديمة، وله طوابع متصلة كل الاتصال بالوثنية وعبادة الأجساد، وهو مما يرفضه الأدب العربي ويعارضه تمامًا.
11- كان من أخطر الدعوات التي طرحها المذهب الغربي في الأدب، فصل العصر الحديث عن تاريخ العرب والإسلام تحت اسم الأدب المصري أو السوري أو المغربي في محاولة مضللة، فإن الأدب هو أدب اللغة العربية أساسًا، ###27### وهو في عمومه امتداد للأدب العربي الذي صنعه الإسلام بنزول القرآن. وترمي هذه المحاولة أساسًا إلى عزل الأدب العربي عن فصاحة القرآن مما يترتب عليه العزوف عن الأنماط الأولى، والتماس الأساليب الغربية الحديثة، وهي أساليب وثنية وغربية ومتصلة بالتوراة في الأغلب، من شأنها أن تحجب الأساليب العربية الأصيلة، وتحول دون تذوق بلاغة القرآن المعجزة وفهمها، ولقد جرى الكثيرون على نقل استعارات اللغات الغربية، ولقد حاول رجال مدرسة المهجر إدخال أسلوب التوراة والعهد القديم إلى الأدب العربي كما فعل جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني، ولقد سجل الدكتور محمد أحمد الغمراوي هذه الظاهرة حين أشار إلى أن صاحب كتاب "الشعر الجاهلي" – يقصد طه حسين – ومن لف لفه يسوقون الأدب العربي في غير طريقه، ويلبسونه ثوبًا من غير نسجه، وينسجون عليه نسجًا فرنسيًا، ويسوقونه في نفس الطريق التي ضل فيها الأدب الألماني قرنًا وبعض قرن، فضل عن نفسه، ولم يهتد حتى رده عن تلك الطريق أمثال هللر وهاجيدن وليسنج، فما هي تلك الطريق التي يسوقون فيها الأدب العربي إلا طريق الافتتان بالأدب الفرنسي خاصة والغرب عامة.
###28### 12- كذلك حاول المنهج الغربي الوافد أن يخضع الأدب العربي لأسلوب فصل العصور السياسية، وهو أسلوب عرفته الآداب الأوروبية، وربما كان يتفق مع طبيعتها وظروفها؛ ولكنه حين يطبق على الأدب العربي تأتي بنتائج غاية في الاضطراب والفساد، فالوحدات الأوروبية المتعددة المنفصلة كل منها عن الأخرى انفصالا سياسيًا وتاريخيًا ولغويًا من حيث استغلال كل منها بلغته الخاصة، قد اقتضى هذا المنهج خاصة بالنسبة للحدود الضيقة، ولأول عصر الانفصال عن اللغة اللاتينية، وهو لا يتجاوز ثلاثة قرون أو أربعة.
أما الأدب العربي المتصل في هذه البقعة على امتدادها، المترابط بين أجزائها إلى أكثر من أربعة عشر قرنًا، فإنه لا يتفق له مثل هذا المنهج؛ ومن شأن تطبيقه أن يعجز عن تحقيق أي نتائج علمية، ذلك أن الأدب العربي تميز بخاصتين عظيمتين باين فيهما آداب هذه الوحدات الأوروبية وغيرهما، فامتنع بتلك المباينة إمكان إخضاعه لما خضعت له من قانون، أما أحدها فما انبسط له من أوطان ترامت ما بين بلاد الغال في الغرب إلى تخوم الصين في الشرق، وأما الأخرى فطبيعته الخاصة ومناشئه وينابيعه الدافقة بما يمنحه من

استقلال الشخصية وحماية وجودها بالصمود أمام الأعاصير، والقدرة ###29### على التأثير في مجاري أحداث الحياة؛ ولما كانت الأحداث تمضي متلاحقة ومتلازمة بالضرورة تلازم أجزاء الزمن الذي تحدث فيه، نشأ كل حدث، وهو منفعل بأسباب وعلل متقدمة، فما يكون في يومنا من حادث فلأحداث الأمس الدابر أثر في حدوثه، ومن شأن تقسيم الأدب إلى عصور أن يضيف إلى عهد لاحق نتاج عصر سابق، حمل في أعماقه كل عوامله ومؤثراته وخصائصه.

13- كذلك من أخطر ما واجه الأدب العربي محاولة التركيز على الأدب الحديث وتجاهل الأدب العربي منذ عصر الإسلام، بينما يتخذ الغربيون لآدابهم تراثًا ممتد الجذور بالأدب اليوناني، ويرون أنه لا سبيل لفهم الأدب الغربي الحديث إلا بدراسة الآداب اللاتينية واليونانية، بل واللغتين القديمتين المندثرتين، ولا ريب أن دعوى الفصل بين أدبنا الحديث وبين الأدب العربي الإسلامي الممتد منذ الإسلام هي من أخطر المحاولات التي تفرق الجماعة، وتشتت الشمل، فالأصل أن تكون حياتنا الراهنة والمستقبلة امتدادًا لحياتنا الإسلامية العربية، وأن تكون أخلاقنا وأذواقنا ولغتنا وأساليبنا امتدادًا قابلا للتغير المتصل بالعصور والبيئات الحفيظ على الأصول العامة والقيم الأساسية.

###30### ومن وراء ذلك هدف واضح، هو أن يصبح المسلمون اليوم مقطوعي الصلة بماضيهم في اللغة والدين والعادات والذوق الفني والمزاج وفي التقنين الخلقي.

14- كذلك كانت نظرية إقليمية الأدب من أخطر ما تناولته دراسات الأدب الحديث، ودعت إليه المذاهب الوافدة، وعلينا أن نفرق بين تقرير تأثير البيئة في الأدب، وهذا لا اعتراض عليه، وبين القول بإقليمية الأدب، وهذا شيء آخر، إن واقع الأدب في الماضي القريب والبعيد، يثبت أن هذه الآثار لا ترجع إلى قطر من الأقطار أو إقليم من الأقاليم، فالمتنبي مثلا ولد في الكوفة، وعاش في بغداد وحلب ودمشق، وأثره لم يقتصر على إقليم ما، بل شمل جميع الأقطار وغيره كثيرون على هذا النحو، ولقد حافظ الأدب العربي على طبيعته الموحدة والمولدة حتى في أسوأ عصور تفكك الدول؛ وتفتت شعوبها، والحقيقة الواضحة أنه لا يوجد أدب مصري، وأدب عراقي، وأدب مغربي، وإنما يوجد أدباء مصريون وعراقيون ومغاربة.

الأستاذ/ أنور الجندي